



وأنا أذرف بصمت دموع الرحيل، وأتلمس بشغف جدران منزلي الذي أبكاه عزفي المؤلم ، حاولت رغم صراخ الأرق المرعب أن أبقى متشبثاً بزهرة الأمل، لأغزل من تمتات عبيرها سراجاً يقيني من مكر حمم الغدر وعريضة الخفافيش الشاردة ، ومن نسيما توهجها معزوفة لبصيرتي علني أستطيع أن أستلّ، من العيون المطفأة بالحزن، دندنة الخوف وأوقظ في وشوشاتها أريج الفرح.

فتوكأْتُ على عكاز حيرتي لأقطف من هواء بلدي رعشة وفيّة تعين ذاكرتي على ابتداع لحنٍ ، أضمد بهمسهِ الجراح التي عبأت دنان منزلي بأهات مخيفة.

إلا أن دوي الانفجارات الذي لم يترك في مدينتي مأوى آمناً، وزمجرة الخفافيش المسعورة التي كانت تملأ سماءها لتنال من صبرنا وتشبثنا بأرضنا، دفعتني فجأة الى النافذة التي أطفأت سحر ابتسامتها حمم الشظايا المارقة لأطل منها وأبصر هول الكارثة التي اقتلعت من بلدي كلّ شيء إلا تمتمة الأمل ،التي كانت تتلاشى أنا وأنا تضيء .

أوقدت في ذاكرتي همة البحث عن كُوة أخرج منها مع عائلتي الى مكان يريحنا من العذاب المرّ ، ويبعدنا عن الهمجية التي صاغ عربدتها العازفون على أوتارهم الشريرة ، والداعمون بكل سلاحهم المدمر لمن اغتصب أرضنا ، ويسعى الى المزيد غير عابئين بمواثيق الأمم المتحدة . والتي كانت تتحف عقولنا كل يوم بديمقراطية التسلّط، ونهب ثرواتنا إنّ بالغزو أو بالخداع .

ما رأيته من ثقب النافذة أذهل بصيرتي ، لا سيما عندما رأيت الردى يتجول في بلدتي متأبطاً فجوره الخبيث، وكيف كان يبتلع الأشجار، ويمضغ الأزهار، ويخفي منازل الأبرياء ، لكي يبددنا اليأس ونتحوّل الى دمي صراخها الصمت أو نغادر الوطن .

هذا الواقع المأساوي جعلني أجمع بعض ما نحتاجه وأرتدي ثياب الرحيل وأنتظر بقلق بزوغ حنان الشمس ودفئها لأنطلق وأدحو الألم والفرع . مع أنني كنت أدرك ان لا مكان في بلدي بمنأى عن براثن المغتصب ومن يحميه ممن يرهقون عقولنا بعدالة العيش الكريم .

ومع سقسقة أريج الشمس انطلقنا غير عابئين بما يحضر لنا الغزاة من مفاجآت ، ما أربني وأعادني الى زنزانة الأرق . إن الطرق التي اعتقدت أنها ستوصلني الى بر الأمان كانت معبدة بالتوابيت الحديدية التي تقلّ امثالي من النازحين كانت مقيدة بالركام والحرائق وتصرّ علينا أن لا نغامر كي لا يسحلنا القصف الأرعن ، ورغم ذلك لم أياس أو أضعف وتابعت انطلاقتي الى أن وصلت إلى حيث أريد .

وفي ساعة متأخرة من الليل ، وعند الصباح ، وبعد استراحة مخجلة من التعب والوجع ، حاولت أن أتفقد المكان الذي استقبلني بحب لأعزف من جديد على وتر الطمأنينة وراحة البال، فجأة وأنا ألملم من رفيف الشجر ووشوشة الزهر ابتساماً مضيئة ، أومأت لي شجرة زيتون حسبتها نزلت معي ودعتني وهي تبسم لأتفياً ظلالها ونتبادل الحديث عن أوجاعنا وأفراحنا، وأنا في الطريق اليها لأستحم بما هيأته لي من عبير أنسامها سمعت صوتاً لا أدري من أين أتى يوقظ فيّ الفجر ويسألني بشغف ، ليعرف من أين أتيت ، وكيف وصلت ؟

ولما ترددت بالإجابة ألح عليّ وكرر السؤال نفسه .

أجبتة : انا من منطقة لم تعرف الراحة مذ زرعت جرثومة الغدر الى جانبها، أتيت لأن هذه الجرثومة المقيمة لم تترك فيها ملاذاً لأحد ليعيش بسلام .

قال : وهل نزع كل أهلها وتركك للمخالب الشريرة لتعبث بها كما تريد؟

قلت:

لا فمن أضواء فجرها ولقن العدو درساً قاسياً في الدفاع عنها ، لم يزل هناك يحق الظلام ويضيء مصابيح العزة والكرامة ، ولن يسمح للغزاة بانتزاع هذه المنطقة من جسد الوطن وكل ما تسمعه ويضني ، مما يبثه الإعلام المأجور ليس إلا صدى لأحلام العابثين الذين يحوكون كل الألاعيب الدنيئة لنُجبر على الرحيل.

قال:

وهل سقسقة الضوء تستطيع أن تضيء شموع النصر وتفتت حممة الظلام؟

قلتُ:

وهل يستطيع مغتصب ان يبقى في أرض تجهل انتماءه، وشعبها ترعرع على حبها بسلاح لا يعرف الهزيمة، ثم ألا تدري بأن المقاومة لم يهزمها باغٍ مهما عربد ودمر فاستراح ، ولا تكثر من الأسئلة لأننا عائدون.. عائدون

وسنعيد الإبتسامة ...

إلى ياسمين الجنوب .. إلى معجزة الجنوب